

دفاع عن ظاهرة المتون وما بُنى عليها

دكتور عبد الكريم محمد الأسعد

المتون والشروح: طبيعتها والغرض منها:

المتن مصطلح جرى إطلاقه عند أهل العلم على مبادىء فن من الفنون تكثف في رسائل قصيرة غالبا، وهى تخلو في العادة من كل مايؤدى الى الاستطراد أو التفصيل كالشواهد والأمثلة إلا في حدود الضرورة وذلك لضيق المقام عن استيعاب هذا ونحوه، لذلك عدت المتون الأقل ألفاظا الأحسن في ذاتها والأكثر قبولا عند الدارسين.

ولقد نشأت ظاهرة المتون المنثورة والمنظومة على حد سواء لتسهيل التعليم وتيسير الحفظ

والاستذكار والاستيعاب، والمعاونة على حفظ أصول العلوم وقواعدها، وتبعا لهذه الأهداف كان لابد أن تتميز طبيعة المتون بالاختصار والاقتصار على الأصول، وبالاكتفاء بالإجمال والتلميح بدلا من الإسهاب والتصريح. وقد اقتضى وجود المتون بالضرورة شراحا وموضحين، فوضع لها العلماء المصنفات الشارحة الموضحة، وتوخوا فيها التدرج والتنويع، فتراوحت لذلك بين الطول والقصر، وتفاوتت بين السهولة والعسر، وأصبح فيها الوجيز والوسيط والبسيط، وكل ذلك كان يشرح للدارسين ماغمض من المتون، ويفصل للطلاب ما أجمل فيها.

الحواشي والتقريرات والمختصرات: طبيعتها والغرض منها:

دعت الضرورة بعد تأليف المتون والشروح إلى الحواشي المطولة لإيضاح شروح المتون وحل مستغلقها وتبسيطها، فأخذ العلماء يصنفون هذه الحواشي ويستدركون فيها ويضيفون الأمثلة والشواهد والآراء وغيرها، وأكثروا مع الأيام من هذا التصنيف مما أدى إلى كثرة هذه الحواشي وتنوعها وتفاوت مافيها وتميز بعضها عن غيره بما يتضمنه كل منها من الاجتهادات المختلفة تبعا لاختلاف فهم أصحابها لعبارات المتن والشرح الخفية المعنى، ومن ثم اجتهاد كل منهم في تحديد المراد بطريقة تختلف عن طريقة غيره في هذا السبيل.

أما التقريرات فهي بمثابة هوامش كان يسجلها المعلمون والمصنفون على أطراف نسخهم مما يعن لهم من الخواطر والأفكار والملاحظات على نقطة معينة أو نقاط متعددة من هنا وهناك في أثناء قيامهم بالتدريس من الشروح والحواشي أو بالتصنيف عليها، يستدركون من خلالها على مايعتبرونه نقصا، أو خطأ أو غموضا فيها، ومع الأيام ضمت هذه التقريرات في مكانها من الهوامش إلى جانب الشروح والحواشي، وأصبحت لأكثرها أهمية بالغة وقيمة كبيرة، وهي في إطارها الخاص وطابعها الموجز ومحتواها المكثف أشبه بالمتون وإن اختلفت عنها بأنها نتف متفرقة في معارف متنوعة ليس فيها مافي المتون من الرابط العلمي العام، والجامع الموضوعي المشترك، ولا يربطها مايربط المتون من اتساق وتساوق، ولاينتظمها ماينتظم المتون من تسلسل في الموضوعات ووحدة في البحث، بل هي شذرات تكون على بعض ماهو هام في الشروح والحواشي ولاتكون على سائر محتوياتها.

وعندما استقر هذا النظام التأليفي القائم على المتون والشروح والحواشي والتقريرات، عمد بعض العلماء المصنفين في دورة معاكسة إلى اختصار الشروح والحواشي المطولة، وإلى الاختيار مما كان في المتون والتقريرات، ثم إلى العودة بالمتحصل من هذا كله إلى

مايشبه المتون مرة أخرى، وذلك لما رأوه فيها من التزيد الشديد، ومن الخروج الكثير عن الموضوعية، ومن الاستطراد إلى مالاحاجة ماسة له فى مجال البحث.

المتون والشروح فى عصور المماليك:

انتشرت ظاهرة المتون والشروح فى العلوم المختلفة فى عصور المماليك انتشارا عظيما، وأصبحت طابعا شاملا لتدريس هذه العلوم، ومنهجا سائدا من مناهج التأليف فيها، وقد أتجه علماء هذه العصور الى المتون فضبطوا فيها أصول العلوم بدقة وإحكام وجمعوها ولموا شعثها فى صعيد واحد بعبارة موجزة جامعة دقيقة الاشارة يستطيع الدارس أن يستوعبها بأقصر طريق وفى أقل زمن، وغلا بعضهم فى ايجاز المتون وضغط عبارتها حتى بلغت حد الرموز، ثم وجدوا بعد ذلك أن المتون جميعها بحاجة الى شروح توضحها فأخذوا فى تصنيف الشروح لما صنفوا المتون وأسرفوا فى ذلك كله إسرافا أدى الى أن توصف عصورهم من أجله بأنها عصور المتون والشروح.

وفى ظنى أن الاكثار فى عصور المماليك من المتون خاصة إنما كان لشدة حرص علماء هذه العصور على سرعة تلافى ماضاع من كتب العلم فى كارثتى المشرق فى بغداد والمغرب فى الأندلس، وذلك بجمع شتات العلوم فى قبضة اليد فى صورة المتون، وأن الاكثار من الشروح فى هذه العصور إنما كان لأن هذه العصور جاءت بعد عصور سابقة عاش فيها أئمة محققون مجتهدون تركوا تراثا متكاملا، فوقر فى نفوس العلماء أنه ليس لديهم زيادة لمستزيد، وأنه لم تعد لديهم طاقة أو عندهم متسع للاجتهاد فسدوا بابه وأتجهوا الى الشروح يوضحون بها مابين أيديهم من المتون، وأكثروا منها على النحو الذى رأيناه من الحشود المائلة بين أيدينا منها، يقول الدكتور محمد كامل حسين فيما يبدو كأنه أنسب مايمكن أن يذكر فى تعليل ظاهرة المتون والشروح التى سادت نظام التأليف فى عصور المماليك «إن العلوم إذا تم تكوينها ووضعت قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك طويلة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها، ويكثرون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم، هذا ماكان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة، وهذا ماحدث أيضا للمسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودون الأدب العربى بألوانه وفنونه... فهذه الفترة فترة ركود ذهنى العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباينة عن القديم، مرت بها مصر الفاطمية، بل مرت بها جميع الأقطار الاسلامية، بل أستطيع أن أقول اننا لانزال نعيش على هذه الأصول القديمة ولم نستطع أن نتحرر منها الى الآن فقواعد اللغة التى دونها

سيبويه، وأصول الصرف كما تركه ابن جنى، وعروض الخليل بن أحمد ... هى التى تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن»(١)

وهكذا وصل علماء عصور المماليك بالمتون والشروح بين قديم العلم وحديثه، وحالوا دون انقطاع الصلة بين ماقبل عصورهم ومابعدها فى جميع العلوم، ولولا ذلك ربما كان لهذه العلوم نظام آخر غير هذا الذى ذكرناه، من هنا فإن هذه المتون والشروح تعد ظاهرة متميزة صورت عصور المماليك ، وعكست الحياة العلمية فيها، وحققت آنذاك الفائدة المرجوة والنفع المتوخى منها.

الموسوعات فى هذه العصـور :

لم تكن عصور المماليك عصور متون وشروح فحسب، بل كانت أيضا عصور موسوعات(٢)، فقد ظهر فى هذه العصور علماء من ذوى العقليات العلمية الموسوعية التى تميل إلى التأليف الجامع وإلى وضع دوائر معارف واسعة تكون مصادر للعلوم المختلفة، وقد احتمعت فى هذه الموسوعات كل ألوان التراث الخالد الذى تركه العهد العباسى فى بغداد والدولة العربية فى الأندلس فى العلم والأدب، ومن الواضح أن مادفعهم الى العناية بالمتون والشروح هو نفسه مادفعهم إلى الأهتام بالموسوعات، فقد رأوا أن كثيرا من التراث قد ضاع بسقوط هاتين الدولتين وحملهم هذا على أن يتجهوا فى آن واحد الى الاكثار من تصنيف المتون والشروح والموسوعات جميعا ليحفظوا الحضارة الاسلامية عن طريق حفظهم لذخائر الدين واللغة فى هذه المصنفات.

وقد اتسمت موسوعاتهم بالاستطراد إلى الكثير من المعارف الفرعية فى غير العلم الأصلى الذى ألف من أجله الكتاب، فأصبحت هذه الموسوعات بذلك أشبه ماتكون بدوائر المعارف الواسعة المليئة بالمعلومات المتنوعة المفيدة، مما أدى إلى خلودها وأشتهارها واستمرار تداول الباحثين لها حتى الآن.

ومن هذه الموسوعات الهامة على سبيل المثال: نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣هـ(٣)، ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ، وصبح الأعشى للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ، وغير ذلك كثير.

الجذور التاريخية للموسوعات :

لم تكن النزعة الموسوعية عند المصنفين فى عصور المماليك ظاهرة جديدة تماما، فالعصر المملوكى «لم يكن مبتكرا كل الابتكار لفكرة الموسوعة، إذ الموسوعات العربية لها وجود فعلى سابق لهذا العصر بمدة كبيرة، ولعل الجاحظ أول كاتب فى الإسلام يمكن أن يكون خليقا باسم الموسوعى، والحق أن كتب الجاحظ مجتمعة يمكن أن تكون موسوعة كبرى لم يسبق إليها، ثم يصح أن يكون رجال كابن قتيبة وأبى حيان التوحيدى وصاحب كتاب الأغانى موسوعيين بهذا المعنى، ثم لامفر بعدئذ من النظر أيضا إلى رسائل إخوان الصفا على أنها موسوعة فلسفية».(٣)

من هنا يمكن القول بأن النزعة الموسوعية بدأت بالظهور فى العصر العباسى الذى مالبث أن حفل بالكثير من الموسوعات المختلفة، ثم آل الأمر إلى اتساع هذه النزعة فى عصور المماليك وأتخاذها طابعا شاملا فى التصنيف لدى جمهرة علماء تلك العصور الذين يمثلهم فى هذا الباب خير تمثيل الجلال السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ فقد كان صاحب عقلية موسوعية وإنتاج غزير تبدى بوضوح من خلال ماتركه من آثار تكاد تربو على ستمائة مؤلف ورسالة تتراوح بين الاسهاب والايجاز، حشد فيها الكثير من الروايات والأخبار والنصوص والأقوال وغير ذلك فى فنون مختلفة، حتى بدت جميعا وكأنها دائرة معارف واسعة مفصلة.

الحواشى والتقريرات والمختصرات فى العصر العثمانى:

اقتصر التصنيف فى العصر العثمانى تقريبا على الحواشى والتقريرات والمختصرات، ولم يخل بالطبع من كثير من الشروح لكثير من المتون، ولكنه تميز بكثرة حواشيه وتقريراته بالذات كثرة بالغة، وظهر فيه علماء أجادوا فى تصنيف اكثر الحواشى على وجه الخصوص، وأحسنوا ترتيبه وتقريبه وأفادوا منه الدارسين أيما إفادة، وكان لهم فيه مواقف وآراء ومناقشات تنطوى على ألوان من الابداع والتجديد العلمى، ومن هؤلاء الشنوانى المتوفى سنة ١٠١٩هـ والدنوشرى المتوفى سنة ١٠٢٥هـ والحمصى المتوفى سنة ١١٧٦هـ والصبان المتوفى سنة ١٢٠٦هـ وغيرهم.

ولكن إعجابنا بما كان من جمهرة هذه الحواشى لايمنع من الاقرار بأن القليل منها لم يكن على المستوى المرغوب، وبأن صانعى هذا القليل كانوا كذلك، وهذا ليس بغريب،

لأنه شأن التأليف والمؤلفين فى كل زمان ومكان، يكون فيهم الجيد وغيره، وتتفاوت مصنفاتهم فى الجودة وضدها، وعلى كل حال فإن هذا القليل على الرغم من ضخامة بعضه وبسط القول فيه كان مشوبا فى أكثر من موطن بالنقول الناقصة أو المضطربة أو التى يناقض بعضها بعضا، وهى نقول لم يستند ناقلوها أيضا لسبب أو لآخر إلى مصادرها الأصلية مباشرة بل أعتمدوا فى ذلك على وسيط سابق أو أكثر من وسيط، وأستعنوا بذلك عما يجب أن يكون من التحقيق العلمى الدقيق، وكان كذلك حافلا بالتقليد والتكرير والتزيد بلا داع قوى، ومصطنعا للأحاجى والألغاز دون مبرر، ومليئا بالاعتراضات والردود عليها ثم الردود على الردود فى غير ماضرورة داعية، وهذا كله مع الامعان فى تعقيد الألفاظ وإغماض التراكيب وكثرة الحشو بمصطلحات الفنون المختلفة والافراط فى التعلق بالاستطراد لأدنى ملابسة، ومع عدم ملاحظة مصنفى هذه الحواشى لمستوى الدارسين حتى أصبحنا نرى فى بعض الحواشى التى وضعها أصحابها للمبتدئين من المسائل مالا يهضمه إلا من تزود من العلم بقسط وفير، وقد ترتب على هذا أن نفر بعض الطلبة الذين لم يتحلوا بالجلد والصبر من العلم حين صدموا فى مطلع حياتهم العلمية بهذه الحواشى وأنطمست عليهم مسالكها وفاتهم تحقيق الغرض السليم منها.

على أن هذا كله لم يكن كما ذكرنا ألا وصفا للقليل من هذه الحواشى، أما جمهرتها، وكذلك اكثر التقريرات والمختصرات فقد كان جيدا جودة طيبة، وهو مازال وسيبقى جزءا كريما من تراثنا الخالد لايستغنى عنه دارس متعمق مهما علا كعبه فى العلوم والمعارف، وسنفصل القول عن هذه الجمهرة الطيبة فى حديث لاحق من هذه المقالة نديرفيه الكلام على هذا النظام التأليفى برمته من خلال وضعه فى الميزان.

من مصنفات هذا النظام التأليفى فى عصور المماليك والعثمانيين:

كثرت كما سبق أن أوضحنا المتون المنثورة والمنظومة والشروح، ثم الحواشى والتقريرات، فى عصور المماليك، ثم فى عصور العثمانيين على التوالى، فى مختلف العلوم، ومن المناسب بعدما تقدم أن نورد أسماء بعض هذه المصنفات وهى :

- شرح ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ لأرجوزته «لامية الأفعال».
- شرح ابنه بدر الدين المتوفى سنة ٦٨٦هـ لنفس الأرجوزة.
- شرح لعبد العزيز البخارى المتوفى سنة ٧٣٠هـ لمتن «كنز الوصول الى معرفة الأصول» المعروف بأصول البزدوى لعلى بن محمد بن الحسين البزدوى المتوفى سنة ٤٨٢هـ، وقد

سمى شرحه «شرح أصول البزدوى» أو «كشف الأسرار» أو «كشف بزدوى».
- شرح علاء الدين طيبرس المتوفى سنة ٧٤٩هـ لمنظومته النحوية المسماة «الطرفه».
- شرح لصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠هـ على منظومته «الكافية البديعة فى المدائح النبوية».
- شرح زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقى المصرى المتوفى سنة ٨٠٦هـ لألفيته فى علوم الحديث.
- شرح شعبان بن محمد المصرى الآثارى المتوفى سنة ٨٢٨هـ لمنظومته النحوية «الحلاوة السكرية» وقد سمى شرحه «القلادة الجوهرية فى شرح الحلاوة السكرية».
- شرح لشمس الدين محمد البرماوى المصرى المتوفى سنة ٨٣١هـ على ألفيته فى أصول الفقه المسماة «النبذة الألفية فى الأصول الفقهية».
- شرح لبرهان الدين ابراهيم بن محمد القباقبى الحلبى المتوفى فى حدود سنة ٨٥٠هـ على ألفيته فى المعانى والبيان.
- شرح برهان الدين البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥هـ لأرجوزته «الباحة فى علمى الحساب والمساحة».
- شرح الجلال السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ لألفيته فى النحو المسماة «الفريده»، وقد سمى شرحه «المطالع السعيدة فى شرح الفريده».
- شرح نحرق اليمنى المتوفى سنة ٩٣٠هـ على لامية الأفعال لابن مالك، وقد سماه «فتح الأفعال وحل الإشكال بشرح لامية الأفعال».
- حاشية على شرح جمع الجوامع فى أصول الفقه اسمها «الآيات البينات» لأحمد بن قاسم الصباغ العبادى الذى يعبر عنه أحيانا ب «سم» اختصارا، المتوفى سنة ٩٩٢هـ أو سنة ٩٩٤هـ.
- شرح ابراهيم الكرميانى المعروف بشريعى المتوفى سنة ١٠١٦هـ لأرجوزته النحوية المسماة «الفرائد الجميلة» وقد سمى هذا الشرح «الفوائد الجليلة فى شرح الفرائد الجميلة».
- «تلخيص الأساس فى شرح البناء والأساس» لعلى بن عثمان، وهو شرح لمتن «البناء والأساس» فى علم الصرف لأحمد رشدى القره أغاجى.
- شرح محمد الكفوى بن الحاج حميد على متن «البناء والأساس» السابق، فرغ منه سنة ١٠٤٦هـ.
- شرح رسالة أبى زيد فى مذهب المالكية لعلى الأجهورى المالكى المتوفى سنة ١٠٦٦هـ.
- حاشية على تفسير الجلالين لعطية الأجهورى الشافعى المتوفى سنة ١١٩٠هـ.
- شرح محمد بن زكرى من علماء القرن الثانى عشر الهجرى لألفية جلال الدين

السيوطي المسماة «الفريدة» وقد سمى شرحه «المهمات المفيدة في شرح الفريدة».
- شرح لأحمد الدردير على متنه الذى سماه «تحفة الاخوان في علم البيان».
- حاشية لأحمد محمد الصاوى على شرح الدردير السابق، وقد فرغ منها سنة ١٢١٩هـ.
- تقريرات لعلى بن حسين المسرعي البولاقى على حاشية الصاوى السابقة.
- حاشية ابن حمدون التى فرغ منها سنة ١٢٤٩هـ على شرح بحرق للامية الأفعال لابن مالك.
- شرح حسن قويدر الخليلى المتوفى سنة ١٢٦٢هـ لمنظومة استاذه حسن العطار في النحو.
- شرح محمد الخضرى الدمياطى المتوفى سنة ١٢٨٧هـ المسمى «جلاء الطرف» على منظومته النحوية المسماة «منظومة الإخبار بالظرف».
- شرح ناصيف اليازجي الذى مات سنة ١٢٨٨هـ المسمى «الخمانية» لمنظومته الصرفية المسماة «الخزانة» وشرحه المسمى «نار القرى» لمنظومته النحوية المسماة «جوف الفراء».
- شرح الاجرومية لأحمد بن زيني دحلان ألفه سنة ١٢٩١هـ، وله أيضا: حاشية على السمرقندية في علم البيان، حاشية على الاظهار في التحويد، شرح على العقائد، رسالة في علم الوضع وفي علم الجبر والمقابلة، رسالة في المبينات، رسالة في وعيد تارك الصلاة، رسالة صغيرة في علم البيان، رسالة في المقولات، رسالة في مباحث البسملة، رسالة في صيغ الصلوات على النبى ﷺ، رسالة تتعلق بخاء نهد، رسالة متعلقة بقوله تعالى: ما أصابك من حسنة... فمن الله، حاشية على الزبد في الفقه لم تكتمل، وغير ذلك.
- شرح عليش الأزهرى المتوفى سنة ١٢٩٩هـ المسمى «حل المعقود من نظم المقصود» لأرجوزة أحمد الطهطاوى المتوفى سنة ١٣٠٢هـ في الصرف المسماة «نظم المقصود» وهو متن المقصود في الصرف المنسوب لأبى حنيفة.
- «تسهيل نيل الأمانى في شرح عوامل الجرجانى» أو «تسريح العوامل في شرح العوامل» لأحمد بن محمد بن مصطفى القطانى، وهو شرح لمتن «العوامل النحوية» لعبد القاهر الجرجانى، وقد فرغ منه سنة ١٣٠٠هـ.
- حواشى لأحمد بن محمد بن مصطفى القطانى على شرحه السابق.
- تقريرات تشرح بعض مسائل التسهيل والخلاصة الألفية لابن مالك، وهى للمحتار بن

بون المغرى الشنقيطى المتوفى بعد سنة ١٣٠٠هـ على هامش كتابه فى النحو المسمى «الجامع بين التسهيل والخلاصة المانع من الحشو والخصاصة».

- تقريرات للمختار بن بون نفسه كالشرح على كتابه المسمى «الهجاء فى رسم الحروف فى الكتابة».

- شرح محمود محفوظ الدمشقى من علماء القرن الثالث عشر لمنظومته فى النحو المسماة «البلبل المليح».

- حاشية «تشويق الخلان» لمحمد معصوم بن سالم السمارانى السفاطونى وهى على شرح الأجرومية لأحمد بن زينى دحلان، وقد فرغ من هذه الحاشية سنة ١٣٠٣هـ.

- «الخريدة البهية فى إعراب ألفاظ الأجرومية» لعبد الله بن عثمان المكى العجيمى، فرغ منها سنة ١٣٠٧هـ، وبهامشها فوائد وتنبيهات للمصنف نفسه.

- «فتح اللطيف شرح حديقة التصريف» لعبد الرحمن بن أحمد الكسلانى، فرغ منه سنة ١٣٥٤هـ، وقد شرح فيه أرجوزته المسماة «حديقة التصريف فى علم التصريف».

- شرح «السلسل المدخل فى علم الصرف» لمحمد بن محمد الياس الجاوى القندلى من علماء القرن الرابع عشر.

- شرح «مرشد الولدان الى معانى هداية الصبيان» فى علم التجويد لسعيد بن سعد بن نبهان الحضرمى من علماء القرن الرابع عشر الهجرى، وهو شرح لمنظومته المسماة «هداية الصبيان فى التجويد».

- شرح لابن نجى، وشرح آخر للبرماوى، وشرح ثالث لم يعلم مؤلفه، وجميعها على لامية الأفعال لابن مالك.

- حاشية أحمد الرفاعى على شرح بحرق هذه اللامية.
- حاشية الفيومى على نفس هذا الشرح للامية ابن مالك.
- تقريرات اسمها «القصر المبنى على حواشى المغنى» لعبد الهادى نجا الأبيارى، وهى مطولة على حاشية الأمير على مغنى ابن هشام الأنصارى.

حاشية على فتح المعين فى الفقه لأبى بكر محمد شطا المكى.

وغير ذلك كثير جدا فى العهدين، فى علوم شتى.

منهج للتأليف والتعليم معا :

لم يكن النظام التأليفى القائم على المتون والشروح والحواشى والتقريرات والمختصرات منهج تصنيف فحسب، بل كان منهج تعليم أيضا، فقد رأينا المعلمين يبدأون فى العادة بعد أن يحفظ الطلاب المتون فى شرح ألفاظها وحل ماكان معقدا منها، وإيضاح المراد بها عن طريق الشروح والحواشى ومايتبعهما، وهو أسلوب تعليمى يحتاج من المعلم والدارس معا جهدا قويا وملكة مناسبة وقدرات خاصة وقابليات متميزة.

لهذا ساد هذا النظام الحياة العلمية درسا وتصنيفا، وتعددت المتون والشروح والحواشى والتقريرات والمختصرات وتنوعت وتوالت فكان لنا من كل ذلك ثروة علمية عظيمة القيمة خلدت مع الزمان، لأنها حفلت بالمعارف المفيدة والآراء السديدة والنظرات المبتكرة، بالاضافة الى أنها حفظت لنا نصوصا من أصول ومصادر عدت عليها العوادى ولم يصلنا منها غير أسمائها، ومن المتون والشروح الخالدة لقيمتها الرفيعة ومزاياها العالية كافية ابن الحاجب وشافيته وشروحهما، وألفية أبن مالك وشروحها، ومغنى ابن هشام وشروحه، فهى مصنفات غزيرة المادة العلمية، عالية المستوى، مازال إلى اليوم محل دراسة المهتمين بعلم النحو وتقديرهم لم يعبها أو يذهب بمحاسنها أو يقلل من قيمتها ومنزلتها مارميت به بعض المتون والشروح من قصور العبارة عن الدلالة الواضحة، ومن أنها كانت نقلا وتقليدا قليل الفائدة ونحو ذلك من المثالب والعيوب.

المتون والمختصرات والشروح والحواشى والتقريرات فى الميزان:

لم تحظ المتون بالذات – ويقاس عليها المختصرات – بالقبول لدى فريق من العلماء حتى فى زمان رواج المتون فى عصور المماليك، فقد رأينا ابن خلدون مثلا المتوفى سنة ٨٠٨هـ يتعرض لها بالانتقاد، وينعى على أهلها أسلوبهم، ويقول عنه «وهو فساد فى التعليم وفيه إخلال بالتحصيل»(٦) ويقول عن أصحاب هذه المتون «قصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات الناقصة وتمكنها»(٧).

وقد رأينا أيضا كثيرا من الباحثين المعاصرين(٨) يكثر من انتقاد هذه السلسلة من التواليف ويسرف فى مهاجمتها، ويحشد فى سبيل ذلك العديد من المآخذ والعيوب، ولايستثنى منها بعضها، بل يرى إنها جميعا قد أفسدت العلوم، وعبرت عن مظاهر التخلف، ودلت على جمود الملكات، وان المتون نشأت عند المتأخرين فى عصور المماليك حين أجدبت العقول وأنعدم الابداع وكلت القرائح عن الاتيان بجديد من العلم، وحين أنصرف العلماء إلى تكرار ماورثوه وإلى إعادة صوغه نظما ونثرا على شكل متون، وإلى التلاعب بصياغات الألفاظ والانصراف إلى الحيل اللفظية والأحاجى الشعرية والنتف والنكات اللغوية، وان أكبر عيب فى المتون وكذلك فى المختصرات هو إيجازها المخل الذى أدناها من المعميات وذلك بسبب ما أدى إليه هذا الاختصار من تكديس المعانى واختزال الألفاظ وقصور العبارات والتوائها وغموضها، *وان أكبر عيب فى الشروح والحواشى ومثلهما التقريرات هو اشتغالها بالمظهر دون الجوهر، وتشاغلها بالألفاظ عن المعانى، وتلهيها بالقشور عن اللباب، وأختيارها الأمثلة مرددة مكرورة لا تتجاوزها الى غيرها كاختيارها الدائم فى كل أمثلتها زيدا وعمرا، وضرب زيد عمرا، ونحو ذلك، وترديدها الحمل معادة مبتذلة، وإكثارها من حشد الآراء ورص المسائل بمناسبة وبغير مناسبة، وتعرضها لأمور ليست من صلب الموضوع، وأستطرادها المعيب إلى مالا يمت إليه بصلة مما أدى إلى الاخلال بوحدة الموضوع، والى زيادة الغموض والامعان فى التعقيد بدلا من الإيضاح والتسهيل، وإلى الخلط الذى يربك المتعلم ويضله، ولاسيما فيما ألف منها لأصاغر الطلاب *وأوساطهم من غير نظر الى مستواهم العقلى والى مبلغ قدرتهم على فهم محتوياتها من المسائل الصعبة والآراء المفصلة المتشعبة، تلك التى تستحق أن تعرض و الأمهات النحوية الكبيرة التى يدرسها المتقدمون فى النحو، كذلك رموها بالاكثار من التعرض لقضايا المنطق والكلام وللتعليل الفلسفى، وبأنها مملوءة بالحدود الكثيرة المتضمنة للقيود والاحترازات المعقدة، وذكروا أن ذلك كله لايفيد النحو عندهم فى شىء، وذهبوا فى مهاجمتها إلى أنها لا تساعد على اتقان الجدل اللفظى الذى ينمى ملكة الفهم كما يقول مؤيدوها، وإلى أن إتقان الجدل فى الألفاظ وتنمية ملكة الفهم للمعانى على أهميته يمكن إدراكه من غير سبيل هذا النظام التأليفى المخصوص، وذلك عن طريق تحصيل الحقائق العلمية نفسها الموجودة فى غير هذا النوع من التأليف، وأن هذا يبدو واضحا فى علم النحو على سبيل المثال، فهو علم تحفل كتبه من غير المتون والشروح ومابنى عليها بكثير من وجوه الخلاف بين النحويين، وتزدحم بالآراء الكثيرة فى التأويل والتوجيه وفى العوامل والعلل النحوية وغير ذلك، وفى هذا كله مجال فسيح للتمرين على البحث والتدريب على الجدل فى المبانى عن طريق تحكيك الألفاظ والتعامل مع العبارات، وفى المعانى من خلال

توجيه الكلمات وتأويل التراكيب، فضلا عن تحصيل المعارف العلمية ذاتها واثراء العقل باستيعابها.

وقد رميت أيضا بأن المهتمين بهذا النظام التأليفي، المنصرفين الى درسه فحسب، المعجبين به وحده، المتعلقين بتحكيك ألفاظ النصوص فيه دون سواها هم فى النهاية أعجز من غيرهم عن تذوق مضمون أى نص أدبى جميل يعرضون له وعن فهمه، وهم أكثر عجزا عن تطبيق معلوماتهم النحوية عليه وعلى أمثاله لقلة خبرتهم فى التطبيق، كذلك رميت هذه السلسلة من التأليف بأن أساليبها ومحتوياتها ومناهج تصنيفها لاتتفق مع الحقائق التربوية الحديثة والمناهج التعليمية العصرية لأنها من جهة تتسم بصعوبة الأسلوب ووعورة المضمون وتهويش المنهج، ولأن مافيها من القواعد لايناسب من جهة أخرى قابليات الطلاب بصورة عملية لخلوها فى الغالب من التمارين التى تساعد على ترسيخ القواعد فى أذهان الطلاب وتعاونهم على التطبيق العملى، ولمراوحتها أيضا بين الزيادة فى بعض المسائل والنقص فى مسائل أخرى، ولأنها لم تكن كذلك تمهد لقواعدها بالمقدمات اللازمة والعناصر الواضحة.

وملحص القول عند المنتقدين أن المتون وشروحها وماصنع لهذه الشروح من حواشى وتقريرات بالاضافة الى المختصرات كانت جميعا مظهرا يعكس انحطاط عصور المماليك وعصور العثمانيين على حد سواء، هذا الانحطاط الذى يعد نتيجة طبيعية لانصراف علماء العصرين الى شئون حياتهم اليومية، ولجهالة حكامها الذين كثر فيهم من لايمت إلى الأصول العربية بصلة، ولايهتم لذلك بعلوم اللغة على وجه الخصوص، وان هذه المصنفات جميعا إن هى إلا صور لفظية استحدثها علماء هذين العصرين بأحرم وصاغوا بها المعارف والعلوم صياغة حاولوا بها الايهام بأنهم أتوا بجديد، وهم فى واقع الأمر لم يأتوا بجديد، وأنها قلما تسلم من غموض العبارة أو خطأ الفكرة أو مخالفة الاصطلاح السليم أو غلط الرواية المعروء، وأنها تصرف عن اللب الى القشور، وأن الطالب ينوء بها حين ينقل نظره مرات متتالية بينها، وتصرفه العناية بالالفاظ عن العناية بالمسائل نفسها، وأن مصنفها ينزع منها حين تقتضيه مجهودا كبيرا يبذله فى التوفيق بين الأسلوب والمحتوى والمنهج فيها، وأنها لم تعتمد فى الخلافا النحوية على الأساليب العربية ولم تتوحد فى طرقها وهدفها وكثر فيها القيل والقال وأصاب فلان وأخطأ علان، وأنها سلبت فى النهاية من علم النحو بهجته ورواءه.

أمام هذا الحشد من الموسومة بالحماس لايسعنا إلا أن نقول بهدوء وموضوعية إن هذا

النظام من التصنيف على الرغم من كل ما قرره مناهضوه، فيه بدون شك خصوبة علمية تتجلى فى كثرة المعلومات المجموعة وتنوعها وطريقة عرضها المتميزة، بالاضافة الى ما فيه من الطرائف والفرائد والأجتهادات والأضافات والموازنات والمناقشات المصوغه جميعا فى منهج للتأليف يناسب زمانه ويطابق مايحتاجه طلاب ذلك الزمان من الذين فرغوا للتحصيل وتهيئوا له وأكبوا عليه وأنصرفوا عما سواه، ويتلاءم مع من سار على منوالهم وحذا حذوهم ونهجح نهجهم من طلاب كل زمان، لايقلل من هذا ولايحط من قيمته نظريات التربية الحديثة ومقولاتها فى طرائق التأليف ووجوه التصنيف فى زماننا هذا الذى حفل بالمطابع الحديثة وبسائر وسائل النشر العصرية مما لم يكن متاحا قبل ذلك فيما مضى من الأزمان.

على أنه لامناص من الأقرار بأن العلم فى هذا النظام هو أغزر منه فيما تلاه من المؤلفات الحديثة، وأن التحصيل من هذه السلسلة التأليفية أكثر نفعا وأعظم فائدة من التحصيل من غيرها من الكتب العلمية المعاصرة التى خالفتها فى المنهج وأختلفت عنها فى المحتوى والأسلوب، وأن الدارس لهذا النوع من المصنفات لابد أن يتحلى بالصبر والكد وأن يكون مالكا للملكة لا أظن أن مثلها مطلوب فى غيره من الطلاب الذين ينصرفون الى أنواع أخرى من الدرس فى كتب المعاصرين.

ان المتون والشروح التى صنفت فى عصور المماليك، وكذلك الحواشى والتقريرات والمختصرات التى صنعت فى عصور العثمانيين، هى فى الحق والحقيقة ذخائر نفيسه دلت على الحياة العلمية المزدهرة فى عهد المماليك بل فى عهد العثمانيين أيضا خلافا لكل مايقال ويذاع، فالمتون والمختصرات متكاملة والشروح شاملة والحواشى والتقريرات مصقولة مجلوة، و كل هذه أوجدت الباحث القادر على الموازنة بين آراء النحويين، وعلى المفاضلة بين مذاهبهم، مع التعليل للمختار منها، وادراك وجوه الرجحان والمرجوحية فيها، وعلمت الدارس معارضة قول بقول ومقارنة رأى برأى ومقارعة حجة بحجة، وفتقت فى ذهنه أفكارا مبتكرة وألهمته إضافات جديدة، وحملته مع طول إلفه لها على طراز متميز من التفكير لايقنع بتبنى الأقوال إلا بعد أن يقوم عليها الدليل وتسندها الحجة.

أما الغموض الذى عيبت به هذه المؤلفات فعندى أنه ليس مما يعاب، بل عكسه الذى يعاب، فأين من كأول أن يحصل العلم بيسر وسهولة من ذلك الذى يحصله بكد ومشقة وعناء، وأين مستوى هذا من ذاك، وشتان بين الملكة والقدرة ومادة التحصيل ولذته هنا وهناك.

على كل حال إن هذا الغموض لم يكن من الظواهر التى أنفردت بها المتون ومابنى عليها من المؤلفات وحدها حتى تعاب به دون غيرها، فلقد كانت امهات الكتب القديمة لايخلو من غموض، بل كان هذا الغموض يكثر فى بعضها كثرة واضحة، فقد عرف عن كتاب سيبويه مثلا أنه كان فى أمكنة كثيرة منه شديد الأيجاز مضغوط العبارة غامض اللغة صعب المدلول مزدحما بالمعانى والأغراض، كذلك لم ينكر بعض الأعلام من القدماء الغموض ولم يستهجنوه، بل كانت لهم فى تبريره أقوال، قال أبن كيسان مثلا «نظرنا فى كتاب سيبويه فوجدناه فى الموضع الذى يستحقه ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى إيضاح، لأنه كتاب ألف فى زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ، فأختصر على مذاهبهم»(٨)، وقال أبو الحسن على بن سليمان الأخفش الأصغر أيضا «عمل سيبويه كتابا على لغة العرب وخطبها وبلاغتها، فجعل فيه بيناً مشروحاً وجعل فيه مشتبهاً، ليكون لمن أستنبط ونظر فضل، وعلى هذا خاطبهم الله عز وجل بالقرآن»(٩) وقد أيد هذا أبو جعفر النحاس بقوله «وهذا الذى قاله على بن سليمان حسن، لأن بهذا يشرف قدر العالم وتفضل منزلته، إذ كان ينال العلم بالفكرة وأستنباط المعرفة، ولو كان كله بينا لاستوى فى علمه جميع من سمعه فيبطل التفاضل، ولكن يستخرج منه الشىء بالتدبر، ولذلك لايمل لأنه يزداد فى تدبره علما وفهما»(١٠) وقال الخليل بن أحمد الفرهودى «من الأبواب مالوشئنا أن نشرحه حتى يستوى فيه القوى والضعيف لفعلنا، ولكن يجب أن يكون للعالم مزية بعدنا»(١٠)، وجاء فى بعض الروايات أن الجاحظ أعرض على أبى الحسن سعيد بن مسعده الأخفش الأوسط قائلا: «أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لاتجعل كتبك مفهومه كلها؟ ومالنا نفهم بعضها ولانفهم أكثرها؟ ومابالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟! فقال: أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله، وليست هى من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلت حاجاتهم الى فيها، وإنما كانت غايتى المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة مافهموا إلى ألتماس فهم مالم يفهموا، وانما قد كسبت فى هذا التدبير، إذ كنت إلى التكسب ذهبت».(١١)

وكما تقتضى طبائع الأمور فى كل القضايا النظرية التى يدور حولها خلال وتتعدد فيها وجهات النظر وتحتمل هذه الوجهات الجدل والنقاش رأينا فريقا من الباحثين المعاصرين يحذو حذو هؤلاء القدماء فيدافع عن هذا النظام التأليفى، ويمتدح هذا اللون من التصنيف، ويؤيده ويعتبره ممتازا ويجعله متميزا على غيره من النماذج التى نراها مصنوعة فى العصر الحاضر، ويرى أنه فى أسلوبه ومنهجه ومضمونه يرمى إلى غاية تعليمية متميزة كتميز هذا الأسلوب والمنهج والمضمون، وأن لهذا النظام التأليفى ميزات قل أن توجد فى غيره أو

تتحقق فى سواء، ذلك «أن معالجة العبارات والنقاش فى تأويل معناها ومبناها، والدوران حولها لتفهمها بطرق مختلفة وتعرف نقصها وتذليل صعابها وتجلية غموضها، كل هذا له فائدة فى شحذ الفكر وتكوين ملكة الفهم والمران على حل المعضلات اللفظية وعلى الجدل العلمى»(١٢) وأن هذا النظام أيضا فوائد لاتحصل مما عداه حتى بالنسبة للمبتدئين وذلك من ناحية التدرج فى التحصيل العلمى خلافا لما قيل ولما يقال «فالمبتدىء يقنع بدراسة المتن ويتفهم ماتضمن من حقائق موجزة، ثم ينتقل الى الشرح وهو أوسع وأوفى، ثم يرقى الى الحاشية والتقريرات ليستوفى مافيها من تمحيص وزيادات ليست فى الشرح، والى جانب هذا كان حفظ المتن عن ظهر قلب عونا على الالمام بالحقائق العلمية وسهولة أستحضارها والإجابة عن دقائقها» وأن هذه السلسلة التأليفية مزايا إن لم تتحقق فى عصرنا لكثرة الشواغل وزيادة الصوارف عن العلم فيه فإنها قد تحققت فى عصور خاصة غير عصرنا القائم «فقد تحققت يوم كان المتعلمون فارغين لها منقطعين لحفظها ودرسها وفك طلاسمها بملازمة أساتذتهم وعلمائهم والرجوع إليهم والى الشروح والتقارير، يوم كانت الحياة هادئة ومطالب العيش محدودة والقناعة غالبة وسن الطلاب كبيرة، وتقربهم الى الله بإتقان هذه العلوم واحتمال متاعبها قويا، أما اليوم فلا شىء من ذلك كله، فالحاجة الى النحو ليست فى المرتبة الأولى لكثير من الناس وطلاب الدراسات العالية... وإنما هى حاجة المستكمل الذى تدفعه روح العصر الى التجمل بألوان من الثقافة العامة لا يليق بالمتحضر أن يجهلها ولا أن يجرد نفسه من قدر منها، فهو فى تعلمها غير أصيل وحظه منها يسير»(١٣) وأنه «من الأنصاف أن نعترف بما لتلك المتون فى غالب أحوالها من مزايا جليلة لاينكرها إلا جاحد أو جاهل» وأنها مع الشروح والحواشى والتقريرات والمختصرات «تنطوى والحق يقال على ذخائر غالية وتضم فى ثناياها كنوزا نفيسة» وأن «استخلاص تلك الذخائر والكنوز مما يغشها عسير اليوم أى عسير على جمهرة الراغبين».(١٤)

إن هذا النظام التأليفى بنشأته ثم بما طرأ عليه من تطور عصرا بعد عصر يعد فى كل مرحلة من مراحله أمرا طبيعيا مناسبا لزمانه وله أسبابه وبواعثه التى لا افتعال فيها ولا غلو أو شذوذ، فظاهرة المتون مثلا «حفظت من العلم جوهره ولبابه وقامت ولاتزال تقوم بدورها الكريم فى مسرح التعليم من ذلك العصر البعيد الى عصرنا الحديد»(١٥) كما أنها مع الشروح كانت فى عصور المماليك «طورا طبيعيا فى تاريخ التأليف، إذ لابد أن يعقب طور التوسع والتخصص فى التأليف طور يقرب لطلاب العلم وناشئته تناول العلم ويعاونهم على بلوغ إربهم منه فى وجازة وعجلة وبخاصة صغار المثقفين ويجمع لهم حقائق العلم فى متون يسهل حفظها فأستحضارها وقت الدرس لتكون موضع المناقشة والشرح، ومن ثم يعمد

بعض المدرسين بعد إلى تناول المتون بالشرح مرة أخرى ليجلى ما قد يكون غامضا منها ويفصل ماقد يكون مجملا وهكذا، وعصر المماليك عصر إحياء وبعث وتجديد، وعصر تعليم ونشر للثقافة مع رغبة كامنة فى العجلة وخفة مخبئة فى الوصول، وهذا من شأنه أن يدفع الى الاختصار ووضع المتن ومن ثم الى الشرح والتحشية»(١٥)

وقد تحمس بعض الشيوخ المعاصرين من الذين ارتبط تلقيهم بهذا اللون من التصنيف، وأصطبغت معارفهم وعلومهم، ثم قامت تآليفهم ودروسهم على هذا النظام من الكتب فى الدفاع عنه دفاعا قويا، فهذا الشيخ محمد أحمد عرفه مثلا يرى - وهو عندى على حق - أن العالم إنما يمتاز بفهم الغامض وإدراك البعيد وحل المستغلق، وذلك لايكون إلا بتعويد المرء على شيء من الصعاب يمرن عقله على حل ماياثلها، وكما أن المرء الرياضى لايكون قويا على حمل الأثقال إلا بالتعود على حمل أحمال ثقيلة متدرجا فى ذلك، كذلك لايكون عقله قادرا على حل الصعاب إلا اذا عود عقله على حل مسائل عويصه متدرجا فى ذلك».

ويقول الشيخ أيضا عن فهم النصوص وتحصيل المعلومات وعن مستوى أهمية كل منهما «كان شيوخنا فى الأزهر يعنون فى دروسهم بفهم نصوص الكتب، وكانوا يجعلون لها حظا كبيرا من الزمن ربما طغى على خط العلم نفسه، وكنا إذا حاورناهم فى ذلك قالوا إن صناعة فهم النصوص تحدى عليكم عند استقلالكم بالعمل وتجعلكم تقفون على أرجلكم وتأخذون العلوم من معادنها، ولكننا إذا حفظناكم العلوم دون أن نعلمكم هذه الصناعة بقيتم عاجزين عن أن تأخذوا العلم إلا من معلم، ولم تقدروا على الاستقلال بأنفسكم وكسب العلم دون الاستعانة بأحد» وفى هذا إشارة الى أن مطلب تحصيل المعلومات ليس مما يصح إغفاله، كما أن مطلب التمرس بفهم النصوص العويصة وتفكيك ألفاظها ليس مما ينال من أهميته وخطورته وتسنمه مكان الذورة محال، وعندى أن من يتقنون هذا الفهم ويصلون من خلاله الى المعنى المقصود ولايتصابحون أو يملأون أشداقهم بما يسمى الغموض والعقم هم أدنى الناس إلى أصحاب الابتكار وأقربهم إلى أهل الاجتهاد، وأن هذا الذى يراه أولئك غموضا وعقما ليس فى حقيقة الأمر سوى عدم القدرة على الفهم، أو على الفهم على الوجه الصحيح فى أحسن الأحوال، ولنا فى قدامى العلماء المحدين الذين صبروا على ماقى المتون مثلا من غموض وعمدوا الى إزالته وإيضاح ما أشتد منه وإكمال مانقص فيها ولم يركنوا إلى مجرد القدح فيها ولاهم أطرحوها ومعها الشرح والحواشى والتقريرات من أجله، أسوة حسنة، فهذا أبو حيان الأندلسى يقول فى مقدمة شرحه المسمى «النكت الحسان فى شرح متن غاية الأحسان فى علم اللسان» «هذه نكت أمليتها على مقال نشر وهو غاية الأحسان فى علم اللسان، فتحت فيها مقفلها وأوضحت مشكلها، وأكثرها إنما هو ابداء

حكم فى صورة المثال، وربما ألممت بهادة حكم أو ذكر خلاف أو أستدلال، ولم أقصد إرخاء العنان فى هذا المضمار بل آثرت الأيجاز على الاكثار... وهى وإن كان جرمها ضئيلا وما تضمنه بالنسبة إلى الفن العربى قليلا فربها أشتملت على فوائد لاتقتبس إلا منها وفرائد لاتؤثر إلا عنها»(١٦) وهذا أبن هشام الانصارى يقول فى مقدمة شرحه المسمى «الكواكب الدرية فى شرح اللمحة البدريه» «هذه نكت حررتها على اللمحة البدرية فى علم العربية لأبى حيان الأندلسى مكملة من أبوابها ماتقص ومسبلة من أذيالها ماقلص»(١٧).

أما الاستطراد الذى عيبت به الشروح والحواشى على وجه الخصوص، فليس ينطوى فى ملتى وأعتقادى إلا على معين لاينضب من المعلومات المتنوعة فى مختلف ألوان المعرفة يغترف منها محبو العلم مايشاءون كما يشاءون، وصدق الخليل بن أحمد حين قال «لايصل أحد من علم النحو إلى مايحتاج اليه حتى يتعلم مالا يحتاج إليه»(١٨).

أما مارعم ان هذا النظام التأليفى يعد مظهرا لانحطاط عصور المماليك وعصور العثمانيين، فعندى أن الواقع التاريخى يكذب هذا الزعم، يستوى فى ذلك عهد المماليك وعهد العثمانيين، فقد حكت لنا كتب التاريخ فيما حكت ماكان للعلوم فى العصرين بعامة وفى عصر المماليك على وجه الخصوص من ازدهار وانتشار، وماكان للعلماء فيهما من منزلة رفيعة، وما كان لحكامهما على اختلاف أصولهم من اهتمام بالتعليم والتصنيف، وفى فهارس المخطوطات والكتب الدالة على آثار السابقين طوفان مما ألف فى عصور المماليك وعصور العثمانيين من متون وشروح وحواش وتقريرات ومختصرات تنطق كلها بما حفلت به من ألوان المعارف التى لا يتأتى معها أن تنسب الى التخلف والجمود والضحالة، وفى ظنى ان ظاهرة المتون والشروح فى حد ذاتها ليست مستحدثة فى عصور المماليك وإن تكن تسميتها بهذين الاسمين هى الجديدة، فهناك مايمكن تسميته بالمتون تجوزا بصرف النظر عن ضخامة حجم أكثرها، وذلك إذا نظرنا إلى كثرة ماصنع لها من شروح وتعليقات ونحوها على مر العصور بسبب غموضها وصعوبة عبارتها وحاجتها الماسة إلى الايضاح فضلا عن أهميتها وعظم منزلتها، وخير ما يمثل ذلك كتاب سيبويه وجمل الزجاجى وأمثالهما من أمهات الكتب القديمة الهامة، يقول الشيخ محمد أحمد عرفه عن كتاب سيبويه «لم يخدم كتاب فى العربية مثلما خدم الكتاب لسيبويه، ولم يوضع على كتاب من الشروح والحواشى وتفسير الشواهد مثل ماوضع على الكتاب»(١٩)، وشبيه أيضا بالمتون الى حد ما المسألة التى وضعها أبن العريف القرطبى المتوفى سنة ٣٦٧هـ لولد

أبى عامر المنصور وفيها من العربية مائتا ألف وجه وأثنان وسبعون ألف وجه وثمانية وستون وجها، وماكان من ملك النحاة الحسن بن صافى العدادى المتوفى بدمشق سنة ٥٦٨هـ حين أستشكل عشر مسائل نحوية وسماها «المسائل العشر المتعبات إلى الحشر»(٢٠).

أما اتهام الدارسين فى هذا النظام التأليفى بأنهم لايتقنون سوى التعامل مع الألفاظ وتحكيكها مما يعجزون معه عن تذوق أى نص أدبى جميل وعن تطبيق قواعد النحو عليه لقلة خبرتهم فى التطبيق، فإنه من الواضح ماقى هذا الاتهام من المغالاة والتطرف، وهو ان صح وقوعه فإنما يقع من طائفة قليلة من الدارسين الذين ضعف استعدادهم والذين قصروا همهم فى نفس الوقت على دراسة الألفاظ وحدها ولم يتجاوزوها إلى معانيها، ولا يجوز تعميم الحكم من أجل هؤلاء كما هو الواجب فى القضايا العلمية، أما الذين يجعلون الألفاظ منطلقا إلى المعانى، أو يوحدون النظرة اليهما، وهم جل الدارسين، فلن يعجزهم بالتأكيد أن يتذوقوا مضمون أى نص أدبى جميل ويفهموه ويطبقوا قواعدهم النحوية عليه.

وعلى العموم فإنى أعتقد أن هذا الأسلوب من التصنيف يربى فضيلة البحث والتمحيص، وينمى حلبة الصبر والاعتداد على النفس، ويعود على دقة الملاحظة، وأن هذه السلسلة من المؤلفات تتميز خلافا لكل ماقيل بلونها الخاص الذى تكثر فيه الصور الجدلية والاعتراضات والردود عليها ثم الاعتراضات على هذه الردود ونحو هذا، وذلك تأسيا من مصنفيها بما كان موجودا منها فى مناظرات قدامى النحويين وفى مجالسهم وحلقات تعليمهم ومصنفاتهم، وإن تزيدوا فى الأمر فأكثروا من مزج هذا كله بالفلسفة والمنطق والجدل.

على أن هناك بعض الظواهر الجديرة بالتسجيل لأنها ترتبت على سيادة هذا النظام التأليفى فى عصرى المماليك والعثمانيين، ومن هذه الظواهر ظهور نوع خاص من المتون النحوية يبحث فى موضوع واحد أو فى مسألة واحدة بإيجاز، ثم ظهور شروح خاصة لأكثر هذه المتون، ومن أمثلة هذا وذاك: كتاب «الشذا فى أحكام كذا» لأبى حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥هـ، وأربعة متون أحدها فى إعراب «فضلا» ولغة واصطلاحا وحلاقا وهلم جراء والثانى فى استعمال المنادى فى تسع آيات من القرآن، والثالث فى مسألة اعتراض الشرط على الشرط، والرابع فى أحكام لو وحتى، وهى جميعا لابن هشام الأنصارى المتوفى سنة ٧٦١هـ، ومتن «أحكام كل وماتدل عليه» لتقى الدين السبكى المتوفى سنة ٨٥٥هـ، ومتن «انجاز الوعد بمسائل أما بعده» للجوهرى المتوفى بعد سنة

١١٥١هـ، ومتن «أحكام لاسيما» لأحمد السجاعى المتوفى سنة ١١٩٧هـ، و « الرسالة الكبرى على البسملة» للصبان المتوفى سنة ١٢٠٦هـ، ومتن «الجوهر الفرد فى الكلام على أما بعد» للدمليجى المتوفى سنة ١٢٣٤هـ، ومتن «أحكام لو» للرشيدى من علماء القرن الثانى عشر الهجرى، ومتن «مسألة الكحل» لنجم الدين سعيد، وهو إيضاح «ما رأيت رجلا أحسن فى عينه الكحل منه فى عين زيد»، وشرح «فوح الشذا بمسألة كذا» وهو شرح لابن هشام الأنصارى على متن أبى حيان الأندلسى «الشذا فى أحكام كذا» وتكملة له، وشرح «إحراز السعد بانجاز الوعد بمسائل أما بعد» وهو شرح للجوهرى على متنه «إنجاز الوعد بمسائل أما بعد».

ومن هذه الظواهر أيضا تصنيف بعض الكتب على شكل أسئلة فى النحو وإجاباتها، وكأنها فى ذلك متون وشروح مجتمعة، ومن هذا كتاب «قطر الجنى فى جواب أسئلة الذهبى» لأبى حيان الأندلسى، وكتاب «الاجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية» للراعى الأندلسى المتوفى سنة ٨٥٣هـ. وكتاب «رفع التلبيس فيما سئل به أبن خميس» وهى أسئلة نحوية سئل فيها أبن خميس وأجاب عنها وجمع الأسئلة والاجوبة الشيخ محمد الأمير المتوفى سنة ١٢٣٢هـ، وكتاب «الأسئلة النحوية المفيدة والاجوبة العربية السديدة» لأحمد الطهطاوى المتوفى سنة ١٣٠٢هـ، وكتاب «التحفة السنية فى شرح الثمرات الجنية فى الأسئلة النحوية» لعبد الوصيف الأزهرى.

ومن هذه الظواهر كذلك ظهور مصنفات تقتصر على إعراب عبارة المتن وحده، أو على شرح الشواهد مع إعرابها وبيان مناط الشاهد فيها، ومن هذه المصنفات: إعراب خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥هـ لمتن الأجرومية، وتمرين الطلاب فى صناعة الاعراب له أيضا وهو إعراب لألفية أبن مالك، وشرح السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ لشواهد المغنى، ونكت له أيضا على شرح شواهد المغنى، وكتاب «شواهد القطر» للحطيب المتوفى سنة ٩٧٧هـ وهو شرح لشواهد القطر مع إعرابها، وإعراب الكفراوى المتوفى سنة ١٢٠٢هـ لمتن الأجرومية، وكتاب «شفاء الصدر بتوضيح شواهد القطر» للعدوى وهو شرح لشواهد قطر الندى مع إعرابها، وشرح السجاعى لشواهد شذور الذهب وإعرابها، وشرح للفيومى لشواهد الشذور أيضا مع إعرابها، وشرح الصاوى لشواهد المغنى، وشرح الخرجاوى لشواهد ابن عقيل، وكتاب «فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل» لقطة العدوى.

ومن هذه الظواهر مالوحظ كثيرا من ان فريقا كبيرا من أصحاب المتون كانوا يقومون

بأنفسهم بتصنيف شروح لمتونهم، بالاضافة الى مايقوم به غيرهم من شرحها، ولاشك أن صاحب الدار أدرى بما فيها، وهم لذلك أقدر من غيرهم على إدراك مرامى المتون التى صنعوها، وفهم ماغمض منها، وذكر ماحذف منها وتفصيل ما أختصر فيها، ويمكن التمثيل لهذه الظاهرة بابن هشام الأنصارى فى متنيه قطر الندى وشذور الذهب وفى شرحيه لهما، كذلك يمكن ملاحظة النماذج الدالة على هذه الظاهرة مما سقناه من قبل فى هذا البحث من أسماء العديد من المتون والشروح والحواشى والتقريرات وأسماء أصحابها فلا نعيده هنا.

مصادر البحث ومراجعه

١- الاتجاهات الحديثة فى النحو، مجموعة محاضرات، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م.

٢- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطى، عيسى البابى الحلبى بمصر، سنة ١٩٦٤م، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم.

٣- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، عبد اللطيف حمزه، ط ٨، القاهرة، سنة ١٩٦٨م.

٤- الحيوان، الجاحظ، ط ٢، القاهرة، سنة ١٩٦٥م، تحقيق عبد السلام هارون.

٥- أبو حيان النحوى، د. خديجة الحديثى، مكتبة النهضة، بغداد، سنة ١٩٦٦م.

٦- شرح المفصل، ابن يعيش، ادارة الطباعة المنيرية بمصر، بدون تاريخ.

٧- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، محمود رزق سليم، مطبعة الآداب، مصر، سنة ١٩٦٥م.

٨- فى أدب مصر الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ط٢، دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٦٣م.

٩- فى النحو العربى، نقد وتوجيه، د. مهدى المخزومى، المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٩٦٤م.

١٠- القواعد النحوية ـ مادتها وطريقتها، عبد الحميد حسن، ط ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٥٢م.

١١- الكتاب، سيبويه، دار القلم، مصر، سنة ١٩٦٦م، تحقيق عبد السلام هارون.

١٢- اللغة والنحو بين القديم والحديث، عباس حسن، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٦٦م.

١٣- المقدمة، ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.

١٤- النحو الوافي، عباس حسن، ط ٢، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧١م.

١٥- النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، محمد أحمد عرفه، مطبعة السعادة، مصر، سنة ١٩٣٧م.

١٦- نظرات في اللغة والنحو، طه الراوي، المكتبة الأهلية، بيروت، سنة ١٩٦٢م.

(١) د. محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص ٩٣ - ٩٤

(٢) موسوعات كتب ضخمة تضم المعلومات المختلفة الخاصة بموضوع واحد أو أكثر من ذلك والمجاميع في معان متعددة بعد أن يقصد إلى التأليف بينها وربط بعضها ببعضها الآخر وحكام الصلة بينها في قسب تأليفي منظم متناسق فيه بحث وتقسيم وترتيب وتنسيق، فقد تكون الموسوعة كتابا ضخما مؤلف واحد أو مجموعة من الكتب تتعدد في موضوعات متنوعة مؤلف واحد أيضا، وقد يشترك أكثر من مؤلف في عمل موسوعي واحد

(٣) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص ٣٢٩

(٤) من آية ٧٩ من سورة النساء وبقية الآية: وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا

(٥) جمع عامة، أي مركبة، أي من العرب متركبات وجمعها مسائل متصلات بعضها من بعض

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٠١ - ٥٠٢

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٠١ - ٥٠٢

(٨) انظر مثلا د. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص ٢٩، وطه الراوي، نظرات في اللغة والنحو، ص ٣٧، وما بعدها، ومحمد أحمد برانق، الاتجاهات الحديثة في تيسير النحو، ص ٩٥، وغيرها

(٩) سيبويه، الكتاب، مقدمة المحقق، ص ١ - ٣

(١٠) ابن يعيش، شرح المفصل، مقدمة، ص ٢ - ٩

(١١) الجاحظ، الحيوان، ص ١ - ٩١

(١٢) عبد الحميد حسن، القواعد النحوية مادتها وطريقتها، ص ٢٧٥

(١٣) عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث، ٢١٤ - ٢١٥

(١٤) عباس حسن، النحو الوافي، مقدمة ١ - ١٠

(١٥) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ٧ - ٢٥٥ - ٢٦٠ بتصرف

(١٦) محمد أحمد عرفه، النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، ٧٠ - ٧١، ١٤٠

(١٧) انظر الجاحظ، البيان والتبيين، ١٤٥ - ١٥١

(١٨) الجاحظ، الحيوان ص ١ - ٣٧

(١٩) محمد أحمد عرفه، النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ٥١

(٢٠) انظر السيوطي، بغية الوعاة ١ - ٥٠٥ - ٥٢٧